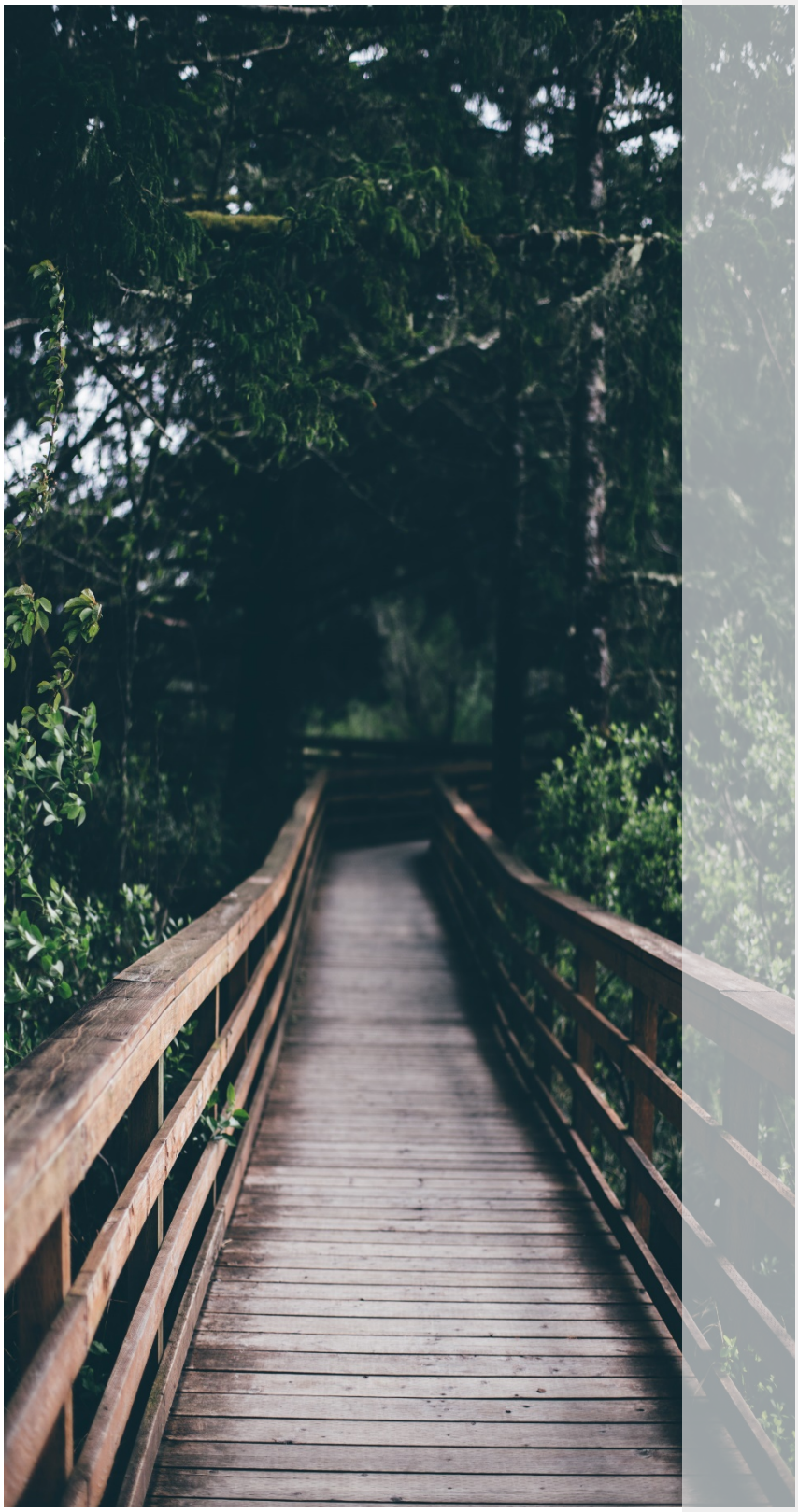

تفريغ محاضرة

كيف نستدرك ما فات

رواء الاثنين | د. هند القحطاني

٧/٣/١٤٤١ هـ

من نحن ؟

نحن مجموعةٌ نهلنا من معين محاضرات د. هند بنت حسن القحطاني، التي هطلت بروائها على قلوب السامعين، ولما شهدنا ذلك الهطل غيثا مُغيثا مريئا، عملنا بكلّ جدٍ وحُبٍ على جمع المحتوى وتنظيمه ونشره ليسيلَ عذباً إلى قلوبكم

نسعدُ بملاحظاتكم واستفساراتكم على البريد الالكتروني:

Info@rawaa.org

كيف تستدرك ما فات

بسم الله الرحمن الرحيم.. إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفُسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. أما بعد،

[قيراطان.. كل قيراط مثل أحد]

صلّى عبد الله بن عمر أعلى جنازة ثم انصرف من المسجد إلى بيته بعد تأديته الصلاة فجاءه رجل وقال له: **يا عبد الله ابن عمر ألا تسمع ما يقول أبو هريرة؟ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ** -صلى الله عليه وسلم- **يَقُولُ: «مَنْ خَرَجَ مَعَ جَنَازَةٍ مِنْ بَيْتِهَا، وَصَلَّى عَلَيْهَا، ثُمَّ تَبِعَهَا حَتَّى تُدْفَنَ كَانَ لَهُ قِيرَاطَانِ مِنْ أَجْرٍ، كُلُّ قِيرَاطٍ مِثْلُ أُحُدٍ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيْهَا، ثُمَّ رَجَعَ، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُحُدٍ»؟**

ويُقصد من هذا الحديث أن من يصلي على جنازة ثم يتبعها-من الرجال- حتى تدفن أي حتى يحضِر الدفن، **فجزاؤهُ أجر من الله مقدار قيراطان يعني مثل جبل أحد مرتين**.

كانت تلك المرة الأولى التي يسمع فيها ابن عمر ذلك الحديث في حياته، فأرسل خباب إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حتى يسألها عن صحة قول أبي هريرة ثم يرجع إليه بجوابها، **وما كان هذا إلا لتعجب ابن عمر من عدم سماعه لهذا الحديث سلفًا**.

مر من الزمن حتى حان وقت عودة خباب وكان ابن عمر حينها يأخذ قبضةً من حصوات المسجد يمسكها بيده ويقلبها بين كفييهِ توترًا ينتظر عودة الرسول الذي أرسله.

وفي لحظات الترقب والانتظار أقبل عليه خباب حاملًا الإجابة ففزع إليه ابن عمر حينما رآه وسأله ما قالت؟ -يقصد أم المؤمنين- قال: إنها تقول صَدَق أبو هريرة -أي صحّ حديث الرجل- ومن شدة وَقع الإجابة ضَرَبَ ابن عمر بالحصى التي كانت في يده بالأرض وقال في حسرة: لقد فرّطنا في قراريط كثيرة!

[إن الحياة دقائقٌ وثواني]

جميعنا في شتّى مراحِل عُمرنا **ضاعت** علينا أمورٌ كثيرة، وفاتنا فيها من العمر الشيء الأكثر. ربما لا توجد بيننا الآن من تبلغ من العمر أقل من ٢٠ أو ٣٠ سنة، فالجميع في مرحلة النضج وما بعدها، لذا **فإننا حينَ نتحدث عن ثورة الشباب نرى أنها قد اكتملت ومضى من العُمرِ ما مضى منه بخيرٍ وعافية**، نسأل الله قبولَ ما حسن فيه. أما ما فات منه في تقصير وتفريط في أيام وشهور وسنوات، قد ضاع هباءً منثورا نسأل الله العفو. في كثير من الأحيان يمرُّ علينا طيف من ذكرى السنوات الماضية لا نتذكر تفصيلًا ما جرى فيها، **وكأن الخمس سنوات تعادل خمس دقائق عابرة..** كمرحلة الجامعة مثلًا لا نذكر فيها شيئًا كأنها عدة دقائق ولّت. وقيسي على ذلك الكثير مما تسمعينه من كلام البشر أن هناك عدد من السنوات في حياتهم فُقدت في فراغ. **تأملي كيف يضيع عُمرُ المرء من يديه!! وهذا أمرٌ عظيم لا استخفاف فيه**. وقد كان السلَفُ الصالِحُ قديمًا تَجولُ بهم تلك المشاعر عن مُضي أعمارهم دون أن يتزودوا من أنهار العلومِ والمعارِف، وأنتِ كذلك **حينما تكونين في إحدى حلقات العلمِ والنور وتنصتين لحديث عن أجرٍ عظيم جزاءً لفعل يسير، فتأكُل نَفسك أصابع الندم بين يا ليتني عرفتهُ قبل هذا** ويا ليتها كانت المرة الألف التي أسمعها وليست الأولى.

[مزرعة الأعمار]

أعمالٌ الخير كثيرة لا حصرَ لها، **كركعتي الضُحى** قبل الخروج للعمل وغيرها لن تُنقص منك شيء بل هي زيادةٌ وبركة ناهيك عن أجرها العظيم؛ لذا آن آوان السداد والتعويض عما مضى من العمر وفات بلا عمل نافعٍ واستغلال.

لكن في أحايين أخرى لا يمضي العمر كله في غفلةٍ وجهل بل على العكس قد تكون على طريق الخيرِ والهداية ثم تمر بك أمور دنيوية تُغيّر عليك المعالِم والعوالِم، فتختلف عليك مثلًا بيئة المُحيطينَ بِك وإذ بغالب الأعمال التي اعتدتِ القيام بها بدأت تتلاشى رويدًا رويدًا وبدأ الإفراط والتفريط، ثم تستيقظين من غفلتك فجأة ناظرةً للوراء متسائلةً ماذا حدث؟ ماذا صنعت؟ فترين أثر فوات الزمن عليك يزيدُكِ تحسرًا وندما، فتأتي عبارات الطبطبة التي تعني أنك لازلت الآن في تلك المرحلة، لا زلت في ثورة الشباب وقيد التشكيل فلم يفتك شيءٌ بعد والعُمرُ أمامك، لكن عليك تذكّر وعدم نسيان ذلك الجزء الماضي من عمرك الفائت الذي أهملته ولم تملأ زادك!

[الوقت مادة العمر]

لن ينجو أحد من كثرة العثرات وشدة الإهمال إلا من يتعامل مع عُمرِه ووقته كما يتعامل مع الأموال، أي كل يوم يذهب مع الريح يساوي فوات ألف ريال وكل فوات يومين يساوي ضياع ألفين ريال وقيسي على ذلك.

المال مادةُ الحياة والوقت مادةُ العمر، فمادةُ عُمرك من سيئات وحسنات هي ما سيتم عليها الفصل يوم القيامة

كما قال النبي ﷺ: **(يوم القيامة ليس الجزاء بأموال ولا دراهم).**

إذن كيف نستدرك ما فات؟!

لو كنّا نملِكُ شيئًا ما ثم ذهب أو انتهى فسيكون أمامنا أحد الخيارين إما أن نندُب حظّنا، أو أن نبحث عن شيء نقوم فيه باستدراك ما فات وهذا هو الخيار الأمثل. **فماذا يعني الاستدراك؟ هو اسم من مصدر استدرك، يستدرك. وأدرَكه يعني تَبعهُ ولَحِقَهُ. ويقول الفقهاءُ فيه أنهُ تلافي خَللٍ واقعٍ أو مقدَّرٍ بعَملٍ أو قول،** كأن تنتهي من القيام بعمل بشكل غير مُرضٍ، ثم تقومي بإصلاح ما فيه من قصورٍ وخلل.

ثم **ماذا يعني الفوات؟ هو اسم من مصدر فات وتعني ذهاب الأمر ومضيه عنك**، لذلك نقول فات الشباب أي مضى ورحل. ويقول الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله-: **ما شبهت الشباب إلا بشيءٍ كان في كمي فسقط**. فالفوت هو ذهاب الشيء. إذن هل من الممكن فعل أمر يُرجِع لنا ما فات؟ قبل الإجابة على السؤال لابد من النظر في أمرين، **وهما: الدنيا التي نعيش فيها، والدين الذين نعيش به.**

وكان النبي ﷺ: **يدعو بـ «اللهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي،....»** الآخرة ستكون في الآخرة، أما في هذه الحياة فإننا نملك الدين والدنيا وأحدهما سيفوتنا أثناء مُضيّ العُمر ولا ثالِثَ لهما. وقد أرشدنا الرسول ﷺ كيف نتعامل معهما باتزان، ففي الدنيا ننظُرُ لِمن هو أقل مِنّا كما قال الله عز وجل في إرشاد نبيه ﷺ **(وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)** فسّمى الله الدنيا بالزهرة والوردة الجميلة الملونة كزينة لها حتى يتمتعون فيها اختبارًا وابتلاء، فابن آدم لا يشبع من النِعم ولو مُلئ ما عنده بوادي من الملايين والخيرات سيكون في سعيٍّ دائم إلى المزيد. أما في الدين، **أرشدنا النبي ﷺ أن ننظُرَ لِمن هو أعلى مِنّا لأننا حينها سنَشُدّ مِئزرنا ونتنافس في عمل الخير.**

الألم دواء..

صحيح أن لفوات أمر في الدنيا أو في الدين شعور مؤلم ولا يوجد من هو معصوم من هذا الشعور، كمن تعوّد على أداء صلاة الفجر في وقتها ثمّ تخلف عنها لسبب من الأسباب -وكان حيٌّ القلب- تراه يتقطّع ألمًا وحسرةً، وكذلك من تعود على صيام يومي الاثنين والخميس ثم تركهم لعارض، تراه في هذين اليومين يتذكّر لذّة الصيام وتَمرُّ به العواصف -هذا إن كان حيٌّ القلب-. كل تلك المشاعِر والآلام لهَا معانٍ وغايات، جعلها الله عز وجل كالبلسم على القلوب، **نعم الألمُ دواء إذ أن كثير من الأمور لا تعالج إلا بنقيضِها.** كَحالِ الصحابةِ في غزوة أحد مثلًا حينما انهزموا فيها وكانت هي الغزوة الوحيدة التي خسر فيها المسلمون، والقِصّةُ معروفة حينما انتصروا في البداية وهامت بهم سحائب النصر، باغتهم خالد ابن الوليد فجأة والتف عليهم من الخلف وقَلبَ المعادلة وخَلَّف من بعده شهداء يفوقون الـ٧٠ من الصحابة.

ضاقت عليهم الأرض ووقعوا بين جبلين من الآلام والهموم، الهزيمَة من جهة وفقد الأمل بفكرة النصر ونصر الإسلام من جهة أخرى، كان الوقَع مؤلِم على نفوسهم خاصة أنهم في الغزوة السابقة، أي غزوة بدر لم يتجاوز عددهم الثلاث مئة رجل مُجرّدين من الأسلحة في حين أن عدد الكفار يتجاوز الألف مقاتل ومع ذلك انتصروا بفضل من الله. فلمّا جاءت هذه الغزوة أي غزوة أُحد كانوا أكثر عددًا وأكثر عتادًا فظنّوا بناءً على استعدادهم أنهم جاهزين للقتال إذ ظهر لهم أن في المعركة نوع من التكافؤ، لكن برغم هذا كلّه خَسروا وهُزِموا ولم يكتب الله لهم النصر. **فالألم الذي كان في صدور الصحابة رضي الله عنهم كبير وقد تضاعف لمّا سقط النبي – صلى الله عليه وسلم- في حفرة من حُفر المعركة ودوى صريخ الفجّار بأن النبي مات، محمدًا قد مات!!**

بِضعَ كلماتٍ أنهت كل شيء وأخذت بصيص الأمل معها. المعركة صَعُبت، وأجسادُ الصحابة تتساقط شهيدة، والخبر الكاذب منتشر، ما كانت الطبطبة والبلسم لجراحهم ستكون في شيء سوى رؤيتهم لمحيّا النبي ﷺ أمامهم، حينها هانت عليهم مصيبة الهزيمة طالما أن النبي لايزال حيًّا فلا زال هناك أمل ينتظرهم كي يُشرِّعَ أبوابه. هذه اللحظات

قال عنها الله عزّ وجل **{فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ}**

أي أن الله سبحانه هدَأ نفوسهم بأن أثابهم بغم أكبر حتى هان عليهم الغم الأقل، حتى لا ييأسوا ولا يحزنوا على ما فاتهم من الغنائم ولا على ما أصابهم من الجراح.

يعلم الله أن فوات الأمر الذي نحب له ألمٌ في القلب، إذن كيف نتعامل مع هذا الفوات؟

قبل ذلك سنتحدث عن **العوامل التي تساعدنا على استدراك ما فات**، أولًا: قال الله عز وجل **{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا}**. هذه الآية فيها إرشاد لاستدراك ما فات. ووجه الدلالة في الآية هو "خلفة"، قال العلماء في تفسيرها خلفةً أي من فاته عمل الليل أدركه في النهار ومن فاته عمل النهار أدركه في الليل، يُفهم من هذه الآية **أن على المؤمن ألا يعيش يومه عبثًا ظانًا أنه يوم ضائع يعيشه وينتهي،** بل عليه إن فاته شيء في النهار وشعر بأنه لم يعمل ولم يؤدي ما عليه من أمور يحبها يُفترض عليه أن يعوضها ويؤديها في الليل، وإن لم يستطع في الليل يعمل جاهدًا لأدائها في النهار التالي ولا يرضى بأن يُسوفها ويهملها ليوم ويومين وشهر وشهرين دون استدراك لما فاته ونقصَه!

استدراك الصحابة رضوان الله عليهم..

يقول أنس عن عمه أنس بن النضر: **فاتته غزوة بدر مع النبي** ﷺ الجدير بالذكر أنهم في غزوة بدر خرجوا من المدينة ليس بغرض خوض معركة بل كان الهدف الإغارة على قافلة، أي أن المسلمين تفاجؤوا بالمعركة فلم يستعدوا لها، ولم يدْعُ الرسول المسلمين للمشاركة، ولم ينادي منادٍ بين الناس أن الحرب بدأت، فتخلف كثير من المسلمين عن هذه الغزوة منهم أنس بن النضر.

قاتل المسلمون وانتهت المعركة ثم رجعوا للمدينة، **فجاء أنس للنبي** ﷺ **متألمًا متكدرًا فقال: (يا رسول الله غبتُ عن أول قتال قاتلت فيه المشركين -يعني يقولها مستنكرًا أنا أنس بن النضر أغيب عنك أنت يا رسول الله في أول قتال تقاتل فيه المشركين- وأكمل قائلاً: لَئن أشهدني الله قتال المشركين؛ لَيَرَيَنَّ الله ما أصنع).**

إن المرء ليعجب من قوله ورباطة جأشه، لم يقل سترى يا رسول الله، سترى ما يمكنني صنعه **بل كان جل تفكيره هو رضا الله**، فهو يؤمن بأن رسول الله ﷺ لا يملك شيء، فالأمر بيد الله عز وجل، وأضاف قائلاً: **(يا رسول الله أأنا أغيب عنك؟!، أأنا أغيب عن قتال المشركين كأنني منافق أو من هؤلاء الجبناء؟!، لَئن عشتُ وشهدتُ قتالًا اخرا للمشركين؛ ليرنّ الله ما أصنع)**، هل منا من يتجرأ أن يقول يا رب سترى ما يمكنني صنعه؟، ثم وقعت معركة غزوة أحد، فكان أنس بن النضر من أوائل الناس الذين يشهدونها؛ ليشارك صادقًا ملتزمًا بوعده.

جرت المعركة ولم تكن في صالح المسلمين، وبينما كانت الجيوش تتقاتل وقف أنس بن النضر في منتصف ساحة المعركة وهو يرى موازين القتال قد اختلت،

فإذا بالمسلمين بين شهيد وجريح وفارّ مهزوم، ليقول كلمته: **«اللهمَّ إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابه وما فعلوه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني قريش -»**، ثم تقدَّمَ فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: **«يا سعد بن معاذ الجنةُ ورب النضر، إني أجدُ ريحها دون أُحُدٍ»**، ويقصد أنه يشتّم ريحها وحده فلا أحد يشمها غيره.

رجع سعد بن معاذ إلى النبي ﷺ بعدما انتهت المعركة فقال: **" فوالله يا رسول الله ما استطعت أن أفعل ما فعل".**

سعد بن معاذ الصحابي العظيم الذي اهتز عرش الرحمن لوفاته، لكم الآن أن تتخيلوا أن سعد هذا يقول عن أنس **"والله يا رسول لم أستطع أن أفعل ما فعل"**، يثور التساؤل ماذا فعل أنس؟ ما الذي قام به أنس ويعجز سعد بن معاذ عن فعله؟ يذكر عدد من الصحابة أنهم **(وجدوا أنسًا بعد المعركة شهيدًا ممثلاً به -ويعني أن المشركين شوهوا جسده ووجه- ووجدوا به بضعًا وثمانين ضربة، ما بين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم).**

دعونا نتوقف قليلاً ونتأمل ما قيل عن جسد أنس بعد المعركة، هل يستوعب المرء كيف لجسد إنسان أن يتحمل هذا العدد ٨٠ ضربة!! عشرات من الطعنات والضربات تخترق الجسد وتُدميه، ما بين طعنةِ رمحٍ ورمية سهمٍ وضربة سيف؟

لم تكن واحدة ولا خمسًا ولا عشرًا أو عشرين أو خمسين ضربة، بل هي **(بضعًا وثمانون ضربة)**. نتصور من هذا الكلام كيف كان يقاتل ببسالة رغم الحديد المؤلم الذي قطّع جسده، رغم الدماء التي تنزف من جسده، رغم احتدام الصراع، وتكالب الأعداء وتخاذل الأصدقاء، ورغم ما يراه من تساقط الصحابة من حوله، وتراجع آخرين منهم، ظل يقاتل، حتى وهو ينزف،

كان يقاتل بأشباه وبقايا إنسان، كان عند وعده لله وما عاهده بأنه سيريه ما يصنع فجاهد وقاتل ومات شهيدًا بطلاً في تلك المعركة، ولما جرى له من تمثيل وتشويه غيّر من وجهه وجسده لم يتمكن الصحابة من معرفته، فما عرفته إلا أخته الربيع بنت النضر، جاءت تتفقد أرض المعركة؛ فعرفته بشيء في إصبع يده.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه ـ: كُنَّا نَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ: "مِنَ المُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً " [سورة الأحزاب 23].

كم هو مؤسف أن مبدأ بعض الشباب في رمضان، أن العبادة والعمل والطاعة لا تكون إلا فيه، وما إن ينتهي شهر رمضان إلا توقفوا وابتعدوا وتكاسلوا وقصروا.

على سبيل الاستشهاد يُروى أن عاصم بن سفيان الثقفي جاء إلى مجلس معاوية وعنده أبو أيُّوبَ وعُقْبةُ بنُ عامِر، فقال: "يا أبا أيُّوبَ، فاتَنا الغزْوُ العامَّ"، أي: يتأسَّفُ على فَوات الغزْوِ متألمًا متحسرًا على تقصيره. الجدير بالذكر أن عاصم كان يشعر بالذنب تجاه فوات هذا العام دون أن يجاهد في سبيل الله ولهذا حاول تَدارَكَها بالعمَلِ الصَّالحِ "فرابَطوا"، أي: أقاموا على ثَغرٍ مِن الثُّغورِ الَّتي تُقابِلُ العدُوَّ، "ثمَّ رجَعوا"، أي: بعدَ أنْ قَضَوا مُدَّةَ رِباطِهم جاء لمُعاويةَ وأبو أيُّوبَ وعُقْبةُ بنُ عامِر -والثَّلاثةُ مِن صحابةِ رسولِ اللهِ ﷺ- محاولًا أن يَستنصِحُ أبا أيُّوبَ في إرشادِه إلى أعمالِ الطَّاعةِ الَّتي تُكافِئُ الغزْوَ.

فقال أبو أيُّوبَ رضي الله عنه: "يا ابنَ أخي"، والمُرادُ: أخوَّةُ الدِّينِ لا النَّسبِ، "ألَا أدُلُّك على أيسَرَ مِن ذلك؟ "إنِّي سمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: مَن توضَّأَ كما أُمِرَ "وصلَّى كما أُمِرَ، غُفِرَ له ما تقدَّمَ مِن عمَلٍ"، ثُمَّ قال أبو أيُّوبَ: "أكذلك يا عُقْبةُ"؟ يَستشهِدُ بطلَبِ تأْكيدِ عُقْبةَ له فيما رواه مِن حديثٍ؛ حتَّى يُخْرِجَ ما في قلْبِ عاصمٍ مِن التَّندُّمِ على ما فاتَه، ويُقْبِلَ على ما ينصَحُه به، "فقال عُقْبةُ بنُ عامِرٍ رضي الله عنه نعم".

تأملوا كيف أن هؤلاء الرجال من كبار الصحابة والتابعين، كان نقاشهم حول كيفية استدراك وتعويض ما فاتهم من الخير، رغم أن هذا الخير ليس بفرضٍ فُرض عليهم. همهم كان أن لا ينتهي العام وهم لم يقدموا ويبذلوا ويعملوا خيرًا وصلاحًا، ولمّا فاتهم بعض الخير، بحثوا عن المغفرة وتناقلوا أحاديث الرسول التي تحث على أعمالٍ يغفر بها الله التقصير.

أبو مسلم الخولاني كذلك -أحد التابعين القريبين جدًا من عهد النبي ﷺ- عندما أسلم سافر من بلده قاصدًا المدينة رغبة منه أن يلتقي الرسول ﷺ ويتشرف برؤيته ليكون من صحابته. تخيلوا حجم حسرته، فبمجرد أن وصل للمدينة وجد الناس قد فرغوا لتوهم من دفن الرسول ﷺ. أي حسرة شَعر بها وهو المسافر المتلهف للقاء خير البشر، أي حسرة شَعر بها وهو يسمع هذا الخبر، كانت هذه الحسرة ترافقه طوال حياته، لم يعشْ أيامه عادية كغيره

بل عُرف بأنه التابعي الذي يقوم أغلب الليل ولا ينام

فإذا فترت رجله كان يضربها بيده ينشطها، ويقول: **"أيظن أصحاب محمد أن يستأثروا به دوننا؟ كلا، والله لنزاحمنهم عليه زحامًا حتى يعلموا أنهم قد خلفوا وراءهم رجالاً".**

إنه نموذج من هؤلاء المتنافسين على الخير والتقوى الذين كانوا يستدركون ما فاتهم يستشعرون أنه لو فاتهم شيء من الخير، لم يكونوا ليحيوا حياة طبيعية.

وها هي قصة يزيد بن هارون، الذي كان يعلم طلابه هذا المبدأ ويعاملهم به، فلو فات أحد طلابه الدرس ودخل بعد تجاوز الوقت وانتهاء الدرس، **كان يقول لأحد الغلمان أعطه منديلاً!** قد تتساءلون عن قصده من هذا التصرف؟ كان يزيد يسعى لأن يوصل لطلابه رسالة **" أننا أكلنا وشربنا واغتسلنا، ونحن الآن نجفف أيدينا".**

يزيد بن هارون نفسه قال لرجل من نسل عمر بن الخطاب جاء وقد فاته المجلس، وطلب منه أن يحدّثه بما قيل في الدرس، وكانوا سابقًا يُعظّمون حديث النبي ﷺ ولا يشاركونه إلا مع من يقدره، فلما رأى يزيدٌ أن هذا لا يقدر وقت الدرس وقد تأخر ظانًّا أنه لن يفوته شيء، ردّ عليه يزيد بن هارون: **يا أبا فلان أما علِمت أنه من غاب خاب، فلا تتوقع دائما أنك لما تتأخر، تستطيع أن تُدرك ما فاتك...** كان الصحابة رضوان الله عليهم يربون صغارهم قبل كبارهم على أهمية الاستدراك بعد الفوات، فكانوا يسألون كثيرًا ليستدركوا ما فاتهم.

نعرف الكثير عن قصص الصحابة، وكيف أن بعضهم يُسلم وعمره ٤٠،٥٠، و٦٠ وبعضهم الآخر يُسلم وهو في عمر في الشباب. فهؤلاء الذين كانوا يسلمون وهم كبار في العمر **كان غالب ما يسألون النبي ﷺ عن أفضل الأعمال وأحبها لله.** يُروى أن عبد الله بن مسعود قال: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ العَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: **«الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا»، قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «ثُمَّ بِرُّ الوَالِدَيْنِ» قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» قَالَ: حَدَّثَنِي بِهِنَّ، وَلَوِ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُول ﷺ سُئِلَ: أَيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: «إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ». قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «حَجٌّ مَبْرُورٌ»**

لو تمعنّا فى أسئلة الصحابة سنجد أنها لم تكن أبدًا حول الأعمال البسيطة، فى المقابل لو لاحظنا أنفسنا أحيانًا عندما نسأل عن أى مسألة مثلاً: صلاة الضحى أو صلاة الوتر ستجدنا نسأل عن أقلها، ونادرًا ما نسأل عن أكثرها. كأننا نتنازل عن الأجور العظيمة بالأجر القليل ونفوت على أنفسنا فرص جليلة، أيقبل منّا ذلك ونحن أمة محمد ﷺ؟

الأمة التي عُرفت بأنها تبحث دائمًا عن الأجر المضاعف. تخيلوا كيف أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يسألون الرسول أي الصلاة أفضل؟ كانوا طامعين في مزيد من الأجر، كانوا يبحثون عن مزيد من الفرص لتقربهم من الله، كانوا سيؤدون الصلاة كما تعلَّموها، لكنهم أرادوا الإحسان فيها، فرد عليهم الرسول ﷺ" طول القنوت" يعني طول التلاوة.

ولم تكن أسئلتهم رضوان الله عليهم عن أفضل الأعمال بصورة عامة، بل عن الأعمال بعينها وكيف يؤدونها بأفضل صورها. فهذا صحابي آخر يسأل " أي الصدقة أفضل؟" لم يشأ التصدق بأي شيء وبأي صورة، بل أراد أن يؤديها بأفضل الصور وأحبها لله، كانوا لا يتعذرون بفقرهم وقلة استطاعتهم، بل كانوا يتوجهون للرسول ﷺ يتحرون الأفضل ليعملوا به باذلين أقصى ما لديهم.

نَبِّئْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَنْ مَالِي كَيْفَ أَتَصَدَّقُ فِيهِ؟ قَالَ ﷺ: " نَعَمْ، وَاللَّهِ لَتُنَبَّأَنَّ: تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَأْمُلُ الْعَيْشَ وَتَخَافُ الْفَقْرَ، وَلَا تُمْهِلْ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ نَفْسُكَ هَاهُنَا، قُلْتَ: مَالِي لِفُلَانٍ، وَمَالِي لِفُلَانٍ، وَهُوَ لَهُمْ، وَإِنْ كَرِهْتَ".

هنا الرسول ﷺ ينبأ أصحابه بأن الأعظم أن تتصدق وأنت صحيحٌ شحيح، ترجو الغنى وتخشى الفقر، فيمكن أن يتملكك شعور الخوف من الفقر في المستقبل وحاجتك لهذه الأموال ولا ضمانة لديك تُريحك، لكن يجدر الإشارة إلى أنه يجب عليك عندما تتصدق ألا تكون فقيرًا بحاجة ماسة لهذا المال، وسُئِلَ ﷺ أَيُّ الْكَلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: " مَا اصْطَفَى اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ أَوْ لِعِبَادِهِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ.

دعونا نتذكر ونراجع أنفسنا، متى كانت آخر مرة ردّدنا ذِكر **(سبحان الله وبحمده)؟** أليس هذا الذكر ضمن أذكار الصباح والمساء، الذي يفترض أن تلهج به ألسنتنا صبحًا ومساء، لا تجف ألسنتنا من ذكره.

وعن عبد الله الخثعمي **أنَّ النَّبيَّ ﷺ سُئِلَ أيُّ الأعمالِ أفضَلُ؟ قالَ: إيمانٌ لا شَكَّ فيهِ وجِهادٌ لا غلولَ فيهِ وحجَّةٌ مبرورةٌ قيلَ: فأيُّ الصَّلاةِ أفضلُ؟ قالَ: طولُ القنوتِ قيلَ فأيُّ الصَّدقةِ أفضلُ؟ قالَ: جُهْدُ المُقِلِّ.**

ويُقصد بجُهد المقل لو أن شخص مثلاً لديه راتب مقداره ألف وتصدق بـ ٥٠٠، وآخر لديه مئة مليون وتصدق بمئة ألف، أيهما الأفضل؟ نرى أن الأول تصدق بنصف ماله، أي نصف ثروته، أما الثاني تصدق بمالٍ يُقدر بعُشر ماله. **فالثاني** هو من ينطبق عليه وصف **"جهد المقل".**

قيلَ فأيُّ الهجرةِ أفضلُ قالَ من هجرَ ما حرَّمَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ، قيلَ فأيُّ الجِهادِ أفضلُ؟ قالَ: من جاهدَ المشرِكينَ بمالِهِ ونفسِهِ قيلَ: فأيُّ القتلِ أشرفُ ؟ قالَ: من أُهَريقَ دمُهُ وعُقِرَ جوادُهُ لم يتوقف عن أفضلية الأعمال، فالسؤال هنا كان عن أي الهجرة أفضل؟ هل يا ترى في الهجرة أفضلية؟ هذا يدعونا لأن نتفكر كيف أن الصحابة هاجروا بالأصل من المكان الذي يحبون، من وطنهم ومدينتهم مكة، ومع ذلك يسألون أي الهجرة أفضل ؟. قال: من هجر ما حرَّم الله.

أقف وقفة تأمل في شوقنا وحنيننا لمكة عندما يطولُ غيابنا عنها بالرغم من كثرة زيارتنا لها، إلا أن دعوة إبراهيم عليه السلام لربه: {فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ} تردُ قلوبنا إليها قبل أن نخرُج منها على الرغم من أنها ليست أرضنا لا نحن من أهلها ولا ولِدنا فيها.

إذن كيف يكون شوق من ترعرعوا بين جنباتها وعلى أرضها من هم من أهل مكة والمدينة عندما يخرجون منها؟

كانت نظرتهم أخروية يعمرون أيامهم ولياليهم باحثين عمّا يقربهم للجنة أو حتى يدخلهم عند باب الجنة.

لذا عندما تهجرين شيء حرّمه الله وتتركينه له وتشعرين بألم تركه وفراقه فقط تذكري ألمَ هؤلاء الذين تركوا منازلهم وتركوا بلادهم في سبيل الهجرة لله ستجدين أنه لا مقارنة بينهم.

ثم قيل للنبي أيُّ الجهاد أفضل؟ قال من جاهد المشركين بماله ونفسه. فقيل أيُّ القتل أفضل؟ إذ أنه لا نجاة من الموت أمر منطقي لكن بالتأكيد هنالك مَوتةً شريفة، حُبهم لله والدين لاحدّ له لدرجة سؤالهم عن أفضل طريقة شريفة يموت عليها المرء. فقال: مَن عُقِر جوادُه، وأُهرِيقَ دمُه أي أنه لم يتبقى له شيء.

وعن النعمان بن بشير الأنصاري قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فقال رجل منهم: ما أبالي ألا أعمل عملا بعد الإسلام، إلا أن أسقي الحاج! وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام! وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم! فزجرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، وذلك يوم الجمعة، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه قال : ففعل ، فأنزل الله تبارك وتعالى : (أجعلتم سقاية الحاج) إلى قوله : (والله لا يهدي القوم الظالمين).

أعمال الخير تتفاضل، لاحظوا قول الله عز وجل أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله؟ هذين العملين

لا يستوون عند الله

قد يُشغلك الشيطان بشيءٍ مفضول عن شيء أفضل وتظنين أنه كل شيء مع أن هنالك أبواب للخير أعلى تُدخِلُك في مراتب عليا في الجنة لكن ضاع العمر وأنتِ لا زلتِ في تلك المرتبة من مراتب الإيمان لذلك هناك أشياء يمكن استدراكها وهناك أشياء يقول العلماء أنه لا يمكن استدراكها مثل من ترك صلاته عمدا في يوم ما ثم بعدها بثلاثة أيام يصحو من غفلته ويقوم بتأديتها تباعًا، فهذا لا يصح لأن من ترك الصلاة عمدًا عليه التوبة وكأنه أسلم من جديد لا أن يقضي ما فاته!

يقول حُريثُ بنُ قَبِيصةَ: قَدِمتُ المدينةَ، فقلتُ: اللَّهمَّ يَسِّرْ لي جَليسًا صالحًا، قال: فجلَستُ إلى أبي هُريرةَ، فقلتُ: إنِّي سألتُ اللهَ أن يَرزُقَني جَليسًا صالحًا، فحَدِّثْني بحَديثٍ سَمِعتَه مِن رسولِ اللهِ ﷺ لعلَّ اللهَ أن ينفَعَني به، فقال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: إنَّ أولَ ما يُحاسَبُ به العبدُ يومَ القيامةِ من عملِه صلاتُه ، فإن صَلُحَتْ فقد أَفْلَحَ وأَنْجَح ، وإن فَسَدَتْ فقد خاب وخَسِرَ ، فإن انْتَقَص من فريضتِه شيئًا ، قال الربُّ تبارك وتعالى : انْظُروا هل لعَبْدِي من تَطَوُّعٍ فيُكَمِّلُ بها ما انتَقَص من الفريضةِ ، ثم يكونُ سائرُ عملِه على ذلك، فحديثُ أبو هريرة عن أن أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة صلاته التي كانت بينه وبين الله أما حساب ما بينه وبين بقية الخلق يأتي بعد ذلك، فإن انتقص من فريضته شيء أي جاء يوم القيامة وكانت صحيفة أعماله ناقصة من الفرائض سواء في العدد أو الكيفية، فإن من رحمة الله ولطفه يقول: (انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ؟ فَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَوُّعٌ، قَالَ: أَتِمُّوا لِعَبْدِي فَرِيضَتَهُ مِنْ تَطَوُّعِهِ، ثُمَّ تُؤْخَذُ الْأَعْمَالُ عَلَى ذَاكُمْ)

لذا إن فاتتك صلاة أو شعرتِ بتقصيرٍ فيها فأكثري من النوافل حتى إذا جاء الحساب يوم القيامة تجدي ما يسد ذلك النقص الحاصل وهذا لا يعني التهاون في ترك الفرائض على العكس

بل هو محاولة استدراك ما فات باستكثار الخيرات والحسنات وسدّ الفجوات

كأن تكوني مُواظبة على أداء صلاة الضحى ومُحافِظة على أداء السنن الرواتب ليس لأن يكون لك بيتًا في الجنة فقط، وإنما حتى تشحني رصيدك للمستقبل تسُدّي بِه الخلل والقصور فلا أحد يضمن كمال وتمَام صلاته، فلماذا نبخل على أنفسنا بأشياء تنقذنا يوم القيامة؟ **والحسنات يذهبن السيئات فلا تحرمي نفسك من هذا الخير.**

والاستدراك هنا أن ما لا يدرك كله لا يترك كله وهي قاعدة أصولية فقهية، فالشيء الذي لا تستطيعه كله لا تتركه بأكمله، والإنسان إن نسي أن يُسمي في أول الطعام لا يمتنع عن التسمية لأن وقتها قد فات بل يقول: **باسم الله في أوله وآخره** حتى يؤدي شكر النعمة وهذا من استدراك ما فات، وكذلك حتى يُحرم الشيطان من مشاركته في الطعام.

وقد كان الأسود إذا فاتته الجماعة ذهب إلى مسجد آخر يبحث عن جماعة أخرى حتى يصلي معهم. وهناك فرق في الأجر بين المصلين في الصف الأول وبين المصلين في الصفوف التالية ولو علموا ما في الصف الأول من أجر لاستهموا عليه أي لو قاموا بالقرعة من شدة فضلها، **ويقول النبي ﷺ «.... فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، ....»** فالبعض يمتنع عن أداء فريضة الحَج بِحِجَة أنه لم يصلح قلبه وهذا الأمر من وسوسة الشيطان حتى يؤخرك ويبعدك عن فعل الخيرات، ولا تدرين قد تكون حجتك هذه بدايةً لك ولصلاح قلبك.

أذكر على ذلك حينما **جاء فقراء المهاجرين للنبي ﷺ يطلبون استدراك شيء لم يفتهم بتقصيرٍ منهم وإنما بأمرٍ خارج عن إرادتهم،، فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ مِنَ الأَمْوَالِ بِالدَّرَجَاتِ العُلاَ، وَالنَّعِيمِ المُقِيمِ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَلَهُمْ فَضْلٌ مِنْ أَمْوَالٍ يَحُجُّونَ بِهَا، وَيَعْتَمِرُونَ، وَيُجَاهِدُونَ، وَيَتَصَدَّقُونَ، قَالَ: «أَلاَ أُحَدِّثُكُمْ إِنْ أَخَذْتُمْ أَدْرَكْتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ وَلَمْ يُدْرِكُكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ، وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ إِلَّا مَنْ عَمِلَ مِثْلَهُ تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كُلِّ صَلاَةٍ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ»، فَاخْتَلَفْنَا بَيْنَنَا، فَقَالَ بَعْضُنَا: نُسَبِّحُ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ، وَنَحْمَدُ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ، وَنُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلاَثِينَ، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: تَقُولُ: «سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالحَمْدُ لِلَّهِ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، حَتَّى يَكُونَ مِنْهُنَّ كُلِّهِنَّ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ»،**

هؤلاء المهاجرين أتوا للرسول ﷺ يشتكون ليس لقلة جاه أو حظ دنيوي أو منصبٍ عال، وإنما يشكون قلة أموالهم فلا يقدرون على تقديم الصدقة وعتق العبيد كما يقدر عليها أغنياء الصحابة، **فخشوا أن لا يكون نصيبهم في الجنة سوى المراتب الأقل، هذه تربية الإسلام أن يطمعوا بالآخرة دون أن يكترثوا لزينة الدنيا وزهرتها وهذا هو ما يستحق أن يُتنافس عليه.**

ما الذي يجعلنا نفوّت؟!

أولًا: التسويف

أي التأجيل من يوم إلى يوم آخر ويذهب العمر واليوم الآخر لم يأتِ بعد،

يقول كعب بن مالك عن نفسه في قصة غزوة تبوك الشهيرة لما تخلف عنها: **لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى ولا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخلَّفْتُ عَنْهُ في تِلْكَ الْغَزْوَة،... فتجهَّز رسولُ الله ﷺ وَالْمُسْلِمُون معهُ، وطفِقْت أَغدو لكي أَتَجَهَّزَ معهُ فأَرْجعُ ولمْ أَقْض شَيْئاً، وأَقُولُ في نَفْسي: أَنا قَادِرٌ علَى ذلِكَ إِذا أَرَدْتُ، فلمْ يَزلْ يَتَمادى بي حتَّى اسْتمَرَّ بالنَّاسِ الْجِدُّ، فأَصْبَحَ رسولُ الله ﷺ غَادياً والْمُسْلِمُونَ معَهُ، وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جِهَازي شيْئاً، ثُمَّ غَدَوْتُ فَرَجَعْتُ وَلَم أَقْض شَيْئاً، فَلَمْ يزَلْ يَتَمادَى بِي حَتَّى أَسْرعُوا وتَفَارَط الْغَزْوُ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِل فأَدْركَهُمْ، فَيَاليْتَني فَعلْتُ...)**

فكان التسويف ووسوسة الشيطان هما من أودا به!

لذلك لا تسوف أي عمل خيّر ولا تربطه بأي شيء آخر وافعله بلا تردد.

ثانيًا: الرفقة

أي الناس المحيطين بك لهم سبب كبير في إقبالك للخير من عدمه لا يشترط أن يكونوا رفقاء السوء حتى يزينوا المعاصي وإنما قد يكون وجودهم لا يعود عليك بالفائدة ولا يضيف لك شيئًا بل ربما يعيقونك من التقدم ولا يُحفزونك للعمل والبذل، **فعليك الانتباه والحذر ممن يحيطون بك**، لأن عمرك يمضي وإن كنت ستجاملهم وتجالسهم على حساب نفسك بحجة أنهم أصدقاء قدامى أو أنك تخشى فقدهم أو تخاف حزنهم. لا بأس، **الحل بالنسبة لك هو أن تصل هؤلاء الرفقاء بالود**، ولا تكثر مجالستهم ولا تطيل الحديث معهم، **تذكر أن العمر يمضي وإن مضى وأنت معهم ستكون أنت الخاسر الأكبر. اتخذ قرارك بحزم ودون تردد.**

الأمر الآخر الذي قد يكون سببًا لفوات عمرك هم أقرب الناس لك كزوجك وأولادك وأهلك. كثيرًا ما نسمع ممن حولنا يتعذرون بأن أزواجهم يريدون كذا فيفعلون ما أمروا به، أو يتعذرون بأن أولادهم أشغلوهم فلم يتمكنوا من صنع كذا. والواجب علينا أن نتذكر قول النبي ﷺ:" **لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**" فالزوج يطاع في حقوقه، لكن في أمر الله نطيعه وحده دون غيره ونقدمه، لذلك من المهم ألا تجعل الخير يفوتك من أجل أقرب الناس لك كزوجك وأولادك، أو من الناس المحيطين بك، أو غيرهم.

فخذ مثلاً في الصحابة بعضهم تأخر في الهجرة بسبب زوجاتهم وأولادهم الذين يُصرّون عليهم في وقت قرر المسلمون الهجرة من البلاد، فيجلسون لرعاية أزواجهم وأولادهم وحمايتهم، وبعد ما قدموا المدينة بعد مرور سنوات ورأوا أن الصحابة الذين هاجروا قبلاً سبقوهم بالفضل والعمل وتعلموا عن رسول الله وشاركوه في أمور كثيرة، في المقابل هم متأخرين عنهم بسبب ترجيحهم لأهل بيتهم، أصبحوا يلوموا ويعاقبوا أولادهم وزوجاتهم لأنهم خذلوا بسببهم

إذن العبرة لا تقدم على الله كائن، حتى لا تخسر خيرًا.

[ما الأمور التي تجعلنا نستدرك؟]

أولها، بيئتك المحيطة بك لابد أن تنتبه لها

فالصحابة رضوان الله عليهم كانوا يغيرون بيئاتهم فينتقلون من مكان إلى مكان آخر هربًا بدينهم، **ولذلك إذا كان المحيط الذي أنت فيه يؤثر عليك سلبًا ولا يساعدك على الخير، استبدله بمحيطٍ آخر محفز ويدفعك للخير. يمكنك أيضًا** أن تشترك في برامج مثرية، أو مراكز تساعدك على أن تراجع حفظك، أو اشترك في أي عمل تطوعي يعود عليك بالخير والنفع، لا تجعل أيام عمرك تنقضي دون ذلك، فالبيئة تجعل منك إنسان أفضل فلا تفوتك الخيرات.

ومن أهم الوسائل لكي تستدرك أهم ما فات هي **التوبة**. وأَنَّ نَاسًا، مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ كَانُوا قَدْ قَتَلُوا وَأَكْثَرُوا، وَزَنَوْا وَأَكْثَرُوا، فَأَتَوْا مُحَمَّدًا ﷺ فَقَالُوا: إِنَّ الَّذِي تَقُولُ وَتَدْعُو إِلَيْهِ لَحَسَنٌ، لَوْ تُخْبِرُنَا أَنَّ لِمَا عَمِلْنَا كَفَّارَةً فَنَزَلَ: {وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَلاَ يَزْنُونَ} [الفرقان: 68] وَنَزَلَتْ {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ}.

فأول **مكارم التوبة أن تتوب من أي ذنب فيقلب الله لك كل سيئاتك التي فعلتها إلى حسنات**، لذلك يشعر التائب أول ما يتوب بدفعة إيمانية عالية، هذا الشعور يتملك التائب بمجرد التوبة وحتى قبل أن يبدأ بالعمل الصالح **أحد أوجه كرم الله على هؤلاء التائبين**، وأحد أهم الأسباب التي تجعل الانسان يستدرك ما فات.

التوبة.... وحقوق العباد

لو اغتاب أحدٌ فلان وأكثر الغيبة فيه، فما يصنع حتى يغفر الله له؟- وكما نعلم بأن حقوق العباد لا تستحل إلا منهم- لكن لو ذهب هذا الشخص وأخبر فلانًا بأنه اغتابه وتحدث به، ربما سيسامحه ويعفو عنه ولكن ربما يبقى شيءٌ في نفسه، **لذلك يرى شيخ الإسلام ابن تيمية أنه إذا علِم أن الشر سيزيد ويعظم ويقع في نفس صاحبه عليه شيء، فإنه يكتفي بالاستغفار والدعاء له وأن يدافع عنه في المجالس التي اغتابه فيها.**

والغاية وراء الاستغفار للمغتاب هو أنه إذا جاء يوم القيامة ووجد في صحيفته استغفار وحسنات من استغفار أخيه له فإنه لربما سامحه، وهذا يعني أن الموضوع لا يزال معلق يوم القيامة فالغيبة ليست بالأمر السهل.

لا تيأسنّ من نفسك..

لا تيأس أبدًا ولا تغلبك مشاعر الإحباط في استدراك الذي فات، قد يؤثرون عليك بكلام كـ "**لم يعد هناك فرصة لك بعد هذا العمر أو كبرت وفاتتك الفرص، أو يرددون عليك المثل الشعبي المغلوط لما شاب ودوه للكتّاب**"!!

اعلم أن أبرز وأعظم الصحابة رضوان الله عليهم لم يسلموا إلا بعد أن تجاوزت أعمارهم الأربعين عامًا كأبي بكر وعمر. كذلك نرى أمثلة مؤثرة لأشخاص في زمننا الحاضر تحصَّل العلم في الكبر، كقصص الكثير من الكبار في السن الذين تتجاوز أعمارهم الستين والسبعين من العمر، ويحفظون القران في سنة ونصف رغم كونهم أُمّيّين، والمدهش أيضًا أنهم حفظوا القرآن بمجرد الاستماع والمدارسة من الأشرطة الصوتية، هذه الأمثلة

تؤكد لنا أن علينا ألا نتعذر بأعذار واهية كالكبر أو الاحتجاج بضعف الذاكرة وتشتت العقل.

ولو عدنا لتاريخنا الإسلامي لوجدنا المزيد من الأمثلة العظيمة لمحاولة استدراك ما فات، **كـ ابن حزم** الذي طلب العلم بعد أن كان عمره ستة وعشرين سنة، **وابن حجر** الذي مرت عليه سنوات لم يطلب فيها العلم ولم يكن من أهل الحديث، **وكذلك الشيخ محمد بن عبد الوهاب** الذي وقع في نفسه وهو صغير ما رآه من شرك في المدينة حتى كبر ودعا الناس للتوحيد، وأعادهم للإيمان بلا إله إلا الله خالصة من الشرك.

كل هذه الأسماء هي أعلام برزت في التاريخ، **وقد يتخيل الإنسان أن جميعهم بدؤوا من عمر صغير في مرحلة الطلب والسعي** أو أن حياتهم كلها عاشوها في سعة وهناء.

النابغة الذبياني كذلك الشاعر المعروف الذي نضرب المثل به فنقول هذا أشعر من النابغة، الغريب أن الذبياني لم يكتب بيتًا واحدًا من الشعر قبل أن يبلغ الأربعين.

نستفيد من ذلك أن قلمك قد يسيل ولو طال بك العمر، فاكتشف جانبًا جديدًا في نفسك، ربما هناك موهبة مدفونة فيك لم تكتشفها بعد.

لا تيأس من نفسك ولا تظن أن العمر فات، لا تدري قد ينتظرك في مستقبلك أعظم مما مضى ولو كان ذاك الماضي كثيرا!

ا**عزم على المضي منطلقًا وسترى من الله عز وجل الخير، ولا تيأسنّ من نفسك.**

وأختم حديثي بشيئين اثنين لابد أن تنتبه لهما

أولها: إن انتابك شعور بأن العمر قد فاتك، لا تكتف وتركن لمكاسبك التي كسبتها، واسع لأن تقوي نقاط ضعفك والقصور في شخصيتك، ولا تنس أن ما فاتك من الخير لابد من استدراكه، ولا يوجد بعد اليوم تهاون بما مضى ولا اكتفاء بالقليل الذي قدّم، بل ادخل سباقًا مع نفسك.

ثانيها: لابد أن تسابق ما فاتك وتعمل جاهدًا لتعويضه، فالشعور بالمسابقة، هو الذي يجعل الناس يتمايزون بين بعضهم البعض ويدفعهم لتقديم الخير والتقدم.

أذكّركم واذكّر نفسي، إن كان هدفنا الفردوس الأعلى، فنحن نحتاج إلى عملٍ جادٍ وسعي متواصلٍ.

إن تمعنّا قليلاً وقارنّا ذلك بحجم المساعي التي نقدمها للحصول على شيء دنيوي (رحلة صيفية أو سفرة سياحية أو منتجٍ تاقت له نفوسنا) لشعرنا أننا لم نعرف عظم نيل الجنة والوصول لها.

الجنة وضعها الله للساعين، جنة عرضها السماوات والأرض،

وفي البخاري ومسلم **عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: قال الله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.**

تخيّل أن تسعى لجائزة عظمى، لغاية أسمى، لشيء لن تتخيل جماله مهما رأيت اليوم على هذه الدنيا!

ما تراه اليوم ليس بشيء يُذكر أمام ما سيراه أولئك الذين غرس الله كرامتهم بيده. وختم عليها. **دع الشوق يرافقك ودع التوق لذاك المكان لا يفارقك وتذكر أننا نحن المسلمين لدينا يقين بأن ما إن يموت الإنسان إلا وتنتقل روحه إلى الدار الآخرة، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.**

أسال الله أن يرزقنا ووالدينا الفردوس الأعلى من الجنة، ويغفر لنا ويرحمنا سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

*تنويه: مادة المحاضرة جُمعت من مصادر عدة وجميع المحاضرات في المدونة ليست كتابة حرفية لما ورد في المحاضرة؛ إنما تمت إعادة صياغتها لتُناسب القرّاء وبما لا يُخلُّ بروح المحاضرة ومعانيها.